مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية
University of Tabuk Journal for Humanities and Social Sciences
دورية علمية محكمة
ردمد ١٦٥٨-٨٧٩٧
جامعة تبوك
University of Tabuk
2006
١٤٢٧

صُورَتَا الشَّبَابِ والشَّيْبِ فِي شِعْرِ أَبِي هِلَالٍ العَسكَرِيّ(ت400هـ/ 1009م)*
- دِرَاسَةٌ مَوضُوعِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ-

The Image of Youth and Old Age in the Poetry of Aby Hilal Al-Askari (Died At 400 H/1009M)
- An objective technical study -

د.أحمد دخيل محمّد الجهنيّ
أستاذ مشارك/ اللّغة العربيّة/ أدب ونقد/ العلوم الأساسية/الكلية الجامعية
بأملج – جامعة تبوك
Dr.Ahmed Dkil Mohammed Al-Juhani
Associate Professor / Arabic Language / Literature and Criticism / Department of Basic Sciences / Umluj University College – University of Tabuk
ahmedal2259@gmail.com
https://orcid.org/0009-0008-2535-7176

* هو: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ، نسبة إلى مدينة عسكر مكرم في الأهواز، ومن ثمّ فهو فارسيّ الأصل، توفي سنة(400هـ). كان يُجيد فنيّ المنظوم والمنثور، ضليعًا في اللّغة ودقائق النّحو، وأنساب العرب وأيّامهم، فقد صرف عمره في تحصيل العلم. ترك الكثير من الآثار الأدبيّة والنّقديّة، مثل: كتاب الأوائل. جمهرة الأمثال. ديوان المعاني. كتاب الصّناعتين. كتاب الفروق اللّغويّة. ديوان شِعر... تنظر ترجمته في:(الحمويّ، 1993م، 2/919-923)؛(ابن خلّكان، 1997م، 2/84-85)؛(الزركليّ، 1986م، 2/196).

الملخّص: تهدف هذه الدّراسة إلى تجلية صورتي الشّباب والشّيب فِي شِعر أَبِي هِلَالٍ العسكريّ؛ حيث شكّلت النّصوص الشِّعريّة الّتي تحدّثت عن مرحلتي الشّباب والشّيب نسبة كبيرة من شِعره؛ بما في الأُولى من إقبال على الحياة وتحقيق الطّموحات والآمال. وبما في الثّانية من عزوف وإدبار عن اللّهو والملذّات والمتع، وكذا صدّ الغواني عن الشّيبة. وقد نبعت أهميّة الدّراسة من خلوّ الدّراسات الّتي تناولت هذه الظّاهرة في شِعره. جاءت الدّراسة في: مقدّمة تناولت مشكلة الدّراسة وأهدافها وحدودها ومنهجها والدّراسات السّابقة. ومبحثين؛ الأوّل: عرض لصورة الشّباب في شِعر أبي هلال العسكريّ. والثّاني: عالج صورة الشّيب في شِعر أبي هلال العسكريّ. ثمّ خاتمة دُوّنت فيها أبرز النّتائج الّتي توصّلت إليها الدّراسة، أعقبتها قائمة بالمصادر والمراجع الّتي أفادت منها. توسّلت الدّراسة بالمنهج الوصفيّ التّحليليّ. وخلُصت الدّراسة إلى مجموعة من النّتائج تمّ رصدها في الخاتمة.

الكلمات المفتاحيّة:

أبو هلال العسكريّ، الشّباب، الشّيب، الشِّعر العبّاسيّ.

Abstract: This study aims to elucidate the depictions of youth and old age in the poetry of Abu Hilal Al-Askari. The poetic texts addressing the stages of youth and old age constitute a significant portion of his poetry. Youth is characterized by an eagerness for life, the pursuit of ambitions, and the fulfillment of aspirations, while old age is marked by a withdrawal from pleasures, amusements, and indulgences, as well as the rejection of the elderly by young women. The importance of this study stems from the lack of prior research addressing this phenomenon in his poetry. The study is structured with an introduction that discusses the research problem, objectives, scope, methodology, and previous studies. It is followed by two chapters: the first chapter presents the depiction of youth in the poetry of Abu Hilal Al-Askari, while the second chapter examines the depiction of old age in his poetry. Finally, the study concludes with a summary of the key findings, accompanied by a list of sources and references utilized. The research employs a descriptive-analytical methodology and culminates in a set of findings outlined in the conclusion.

Keywords:

Abu Hilal Al-Askari, Youth, Old Age, Abbasid Poetry

المقدّمة:

تُجسّد مرحلتا الشّباب والشّيب منعطفًا في غاية الأهمّيّة من حياة الإنسان، تقف كلّ منهما على طرفي نقيض من الأخرى، فثمّة: القوّة والفتوّة والمنعة والعزّة والطّاقة العقليّة والفكريّة، والميل إلى اللّهو والعبث والغزل والتّشبيب بالغواني، واقتناص الفرص في الأُولى. وثمّة: الضّعف والهرم وانقطاع الأمل والرّغبة وصدود الغواني وإعراض الغانيات؛ وفي مرحلة الشّباب يشعر المرء بالزهو والإعجاب، في حين يُحسّ إحساسًا عميقًا في مرحلة الشّيخوخة بالحزن والحسرة على ما مضى وفات من الشّباب. ولعلّ أكثر النّاس إفصاحًا عن ذلك، وتعبيرًا عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس؛ الشّاعر المرهف الحسّ والدّقيق الشّعور، إنْ بسلبيّاته أو إيجابيّاته، وفي ذلك تجسيد لفلسفة الشّاعر تُجاه الكون والإنسان والحياة، وموقفه من ثنائيّة الموت والحياة.

مشكلة الدّراسة:

تكمن في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

هل أرّقت ثنائيّة الشّباب والشّيب الشّاعر أَبِي هلال العسكريّ؟

ما أبرز الملامح المعنويّة والفنّيّة الأسلوبيّة الّتي ظهرت في هذه الثّنائيّة؟

هل ثمّة صفات إيجابيّة لمرحلة الشّيب في شِعر أبي هلال العسكريّ؟

هل استطاع الشّاعر أن يُعبّر عن هذه الثّنائيّة الّتي قضّت مضجعه بعاطفة صادقة ومشاعر حرّى؟

أهداف الدّراسة:

*هدفت إلى تجلية موقف الشاعر أبي هلال العسكريّ من قضية الشّباب والشّيب وبيان معاناته، وهو يَعْبر من مرحلة إلى أخرى.

* تبيان الأسباب الّتي دعت أبا هلال العسكريّ إلى مدح وذم الشّيب في الآن ذاته.

* تسليط الضّوء على التّقنيات الأسلوبيّة الّتي جسّدت هذه الظّاهرة في شِعر الشّاعر قيد الدّراسة.

حدود الدّراسة:

ديوان: أَبِي هلال العسكريّ، جمع وتحقيق: جُورج قنازع، مطبوعات: مجمع اللّغة العربيّة، دمشق،(د.ط)، دمشق، 1979م.

منهجية الدّراسة:

اقتضت الدّراسة استخدام المنهج الوصفيّ التّحليليّ الّذي يرصد النّصوص الشِّعريّة الدّالّة ويحلّلها، مع الاستعانة بالمنهج الأسلوبيّ.

الدّراسات السّابقة:

لم يعثر الباحث إلّا على دراستين، الأولى: بعنوان" التّشكيل الموضوعيّ والفنّيّ في شِعر أبي هلال العسكريّ" للباحث: فوّاز بن زايد الشّمريّ، منشورات: النّادي الأدبيّ، منطقة الجوف، السّعوديّة، 2010م. وهي دراسة ماجستير، كلّيّة الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردنّ. وقد جاءت في أربعة فصول، وهي: الفصل الأوّل: تناول فيه حياة الشّاعر الأدبيّة والعلميّة. والفصل الثّاني: عالج التّشكيل الموضوعيّ في شِعر الشّاعر. والفصل الثّالث: توقّف عند التّشكيل الفنّيّ في شِعر الشّاعر. وحلّل في الفصل الرّابع: قصيدتين للشّاعر، الأولى: في غرض الغزل. والثّانية: في غرض الطّبيعة.

الدّراسة الثّانية موسومة بـ:" الأساليب البلاغيّة في شِعر أبي هلال العسكريّ"، للباحث: سهيل محمّد حسين الأرناؤوطيّ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2010م. تحدّث فيها عن الأساليب البلاغيّة في شِعر أبي هلال العسكريّ، مثل: التّشبيه والاستعارة...، والأساليب التّركيبيّة، مثل: التّعريف والتّنكير والتّقديم والتّأخير...، والأساليب الصّوتيّة، مثل: التّكرار والجناس...، وقد اختلفت الدّراسة الحاليّة عن هاتين الدّراستين في

كونها أحصت كلّ الأشعار الّتي عرض فيها الشّاعر لقضيّتي الشّباب والشّيب، ثمّ حلّلت هذه الأشعار وتوقّفت توقّفًا متأنيًّا عندها، وجلّت المفارقة الفنّيّة بين هاتين الظّاهرتين الشِّعريتين. في حين أنّ الدّراستين السّابقتين لم تتبّعا كلّ الأشعار في ديوان أبي هلال العسكريّ في هذا الغرض. وقد تقاطعت الدّراسة الحاليّة مع دراسة الباحث فوّاز بن زايد الشّمريّ: في الحديث عن الشّباب الّذي انصرم وانقضى، والتّحسّر بل البكاء على أيّامه الماضية، وأبرز القضايا الفنّيّة في هذه الأشعار. كما تقاطعت مع دراسة سهيل محمّد حسين الأرناؤوطيّ في جانب الصّورة الشّعريّة المتشكّلة بوساطة تقنيتي التّشبيه والاستعارة.

المبحث الأوّل: صُورةُ الشّبابِ في شِعْرِ أَبِي هلال العَسكريّ

تُمثّل مرحلة الشّباب من حياة الإنسان بداية الإقبال على الحياة: بجمالها وحسنها وغناها وبكلّ ما فيها من: آمال وسعادة وفرح وسرور؛ حيث تكون الذّات في أوج نضجها وزهوها وتحرّرها من ربقة الظّروف والتّحدّيات والمخاطر ففيها "تحقيق الذّات ومرحلة الحبّ والمرح ومرحلة نموّ الشّخصيّة وصقلها...، وفيها الكثير من النّموّ، وفي الوقت نفسه فيها الكثير من المشكلات"(زهران، 1980م، ص416). وانقضاء هذه المرحلة يُولّد شعورًا مفعمًا بالمأساويّة والحزن الّذي ينكأ الجراح، كما تقتضي المواساة والتّعاطف؛ لمن افتقدها، أو حُرم منها لكبر أو هرم أو مرض...، وتمتاز هذه المرحلة بميزات عديدة، مثل: "نموّ الانفعالات [الّتي] تتميّز بالسّيولة والعنف والتّذبذب والتّناقض والقوّة والحماس والحساسية، إلى أن تصل إلى الاستقلال والاستقرار والنّضج الانفعاليّ"(زهران، 1980م، ص418). وارتحال الشّباب وانقضائه وزوال عنفوانه ينطق بالحزن والأسى، وينذر بالموت واقتراب الأجل.

كان الشَّاعر، وهو يرى الموت ينال الأحياء من حوله والفناء يمسح بيده على كلّ ما في الدّنيا، دائم القلق والاضطراب على مصيره وما سيؤول إليه؛ ولذلك حرص أشدّ الحرص على أن يغتنم شبابه قبل هرمه، وحياته قبل موته. ولعلّ الشّعور بالقوّة والنّشاط والحيويّة، ما يدفع المرء إلى اغتنام مظانّ اللّهو ومكامن المتع واهتبال فرص

الملذّات، وانفتاح القلب على الحُبّ والغزل، ومن هنا "ما بكت العرب شيئًا ما بكت على الشّباب، وما بلغت به ما يستحقه...، وأحسن أنماط الشِّعر المراثي والبكاء على الشّباب"(ابن عبد ربّه، 1983م، 361/3).وما زال النّاس يبكون فَقْد الشّباب ويتأسّفون على ذهابه، ولم يزل لسان حالهم عندما يتقدّم بهم العمر:" أَلَا لَيْتَ الشّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا...". وبكاء الشّباب لا يتناقض وشخصيّة الواثق من نفسه، وإن كان إقرارًا بالعجز والضّعف، فهذا فعل الزّمن الّذي لا مفرّ منه. ويرى الشّعراء في الشّباب عهد اللّهو والمرح والقوّة والفتوّة والصّحة والعافية والسّرور والغبطة، كما يمتدحونه ويحضّون على التّصابي والتّمسّك بحلاوته، وبمجرّد ذكره يُفيضون حيويّة وطربًا(محجوب،(د.ت)، ص27-28).

وبالعودة إلى أشعار أبي هلال العسكريّ، تجده يحنّ إلى شبابه، إلى ماضيه، إلى الأيّام الخوالي. يقول من[البسيط] (أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص48):

تَذكُـــرُ إِذْ أَنْـــتَ قَضِيْبٌ رَطِيْبٌ عَلَيْهِ لِلْحُسْـــنِ رِدَاءٌ قَشِيْـــبُ

خَالَطَ مَـــاءَ الحُسْـــنِ فِي وَجْهِهِ مَـاءَ شَبَـــابٍ لَمْ يَرُقْهُ المِشِيْـبُ

إِذَا مَشَـــى يَخْطُـــرُ فِي بُرْدِهِ غَايَـــرَ فِيْهِ الشَّكلُ حُسْنًا رَطِيْبُ

كُنْتَ قَضِيْبَ البَـــانِ لَمْ يُقتَضَبْ وَأَنْتَ مِـــنْ بَعْـدُ قَضِيْبٌ قَضِيْبُ

فَاللَّهـــوُ مُغَبَّـــرٌ مَقَـــادِمُهُ مُعَفَّـــرَ الوَجْهِ حَرِيْـــبٌ سَلِيْـبُ

خُذْ بِنَصِيْبٍ مِنْ سُـــرُورِ الصِّبَا فَمَا لِشَيْخٍ مِـــنْ سُـــرُورٍ نَصِيْبُ

يُخاطب الشّاعر نفسه من خلال توجيه الخطاب لغيره/ تذكرُ، أنتَ/ وبذلك يغيب ضمير المتكلّم؛ ليحلّ محلّه ضمير المخَاطَب "أنتَ"؛ ليكشف عمّا تُعانيه ذاته، فيرى" المرء ذاته، وكأنّه يلحظها من الخارج"(ماي، 1993م، ص96). وقد حذف الشّاعر همزة الاستفهام وتقدير الكلام أتذكر...، وحذفها أفاد التّقرير؛ أي أنّ الشّاعر يُقرّ بأنّه كان شابًا نضرًا مفعمًا بالحركة والحياة والنّشاط ويرفل بالهناء والسّعادة والفرح والسّرور. وقد وظّف الفعل

المضارع:" تَذكُرُ"؛ لما يُفيده الفعل من الدّلالة على الاستمرار والتّجدّد واستحضار الماضي؛ ليكون الحدث وكأنّه ماثل أمام المتلقّي، ويُشاهد كأنّه حاضر أمام عينيه، ومن ثمّ يكون أشدّ تأثيرًا في نفس القارئ.

ويُشبّه شبابه بالغصن الرّطيب/ قَضِيْبٌ رَطِيْبٌ/ ويزهو بنفسه ويُعجب بها أشدّ الإعجاب؛ لما يُمثّله الشّباب من: القوّة والفتوّة والشّجاعة والإقدام...، وكما يزهو الغصن الرّطيب عندما تكسوه الأزهار والأوراق اللّيّنة والثّمار اليانعة/ عَلَيْهِ لِلْحُسْنِ رِدَاءٌ قَشِيْبُ/. فجمع شبابه جمالين أو حُسنين: جمال الوجه وحسن الطّلعة/ مَاءَ الحُسْنِ فِي وَجْهِهِ/ من جهة. والقوّة والفتوّة/ مَاءَ شَبَابٍ/ من جهة أُخرى. فكان يخطر مزهوًّا في برده، ويتيه حسنًا وجمالًا على غيره؛ حتّى تعجّب الشّيب من شبابه، ولم يرق له أن يراه على هذه الحال. وقد أنسن الشّيب، فجعله إنسانًا يفيض غيظًا وغيرة وألمًا؛ لأنّه رأى في الشّباب ما لم يمتلكه ويفتقد من: الحسن والنّضارة والجمال والقوّة، الّذي لم يتوافر فيه. ومن أجل ذلك ترى الشّاعر يحنّ إلى أجمل اللّحظات؛ فترة شبابه ويكثر من الحديث عنها ولا يُمكن أن ينساها، ويدعو إلى استغلالها واغتنامها لحظة بلحظة، ومن هنا تجد الشّعراء ولا سيّما في مرحلة الشّيخوخة؛ يذكرون الشّباب ويتحسّرون عليه بل يبكونه أحرّ البكاء، فليس ثمّة حنين، كحنين الإنسان لعهد الشّباب؛ بلهوه، وغزله وقوّته ومغامراته...، وليس ما يشغله في شيخوخته؛ تسرية للنّفس وتسلية لها إلّا ذكر فترة الشّباب/ خُذْ بِنَصِيْبٍ مِنْ سُرُورِ الصِّبَا/ فَمَا لِشَيْخٍ مِنْ سُرُورٍ نَصِيْبُ/.

ويحنّ إلى الشّباب الّذي انقضى سريعًا. يقول من[المديد](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص48):

وَشَبَـــابٌ خَفَّ نَازِلُهُ لَيْتَهُ عَـــادَ كَمَـــا كَانَا

وَمَشِيْـــبٌ آبَ نَازِحُهُ لَيْتَهُ إِذْ كَـانَ مَـــا بَانَا

خانَنِي دَهْـرٌ وَثِقْتُ بِهِ رُبَّ مَوْثُـــوقٍ بِهِ خَانَا

يؤنسن الشّاعر الشّباب كما يشي الدّالّ: "نازله"، حيث شبّهه بالضّيف الّذي لا يلبث إلّا قليلًا من الوقت، وتجسّد هذه الصّورة سرعة انقضاء مرحلة الشّباب والتّحسّر على ما فات ومضى منه. وبذلك كان المعنى أكثر قربًا

من ذهن المتلقّي من جهة، وأشدّ تأثيرًا في نفسه من جهة أخرى. ونظرًا لأنّ هذه الفترة من أجمل وأسعد الأيّام فلا غرو أن يتمنّى عودتها، ولكنْ هيهات أن يعود الشّباب يومًا. وليس بخافٍ هنا أنّه يستحضر قول أبي العتاهية من[الوافر](أبو العتاهية، 1965م، ص32):

فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا صَنَعَ المِشِيْـــبُ

وفي المقابل، فإنّه يشعر بأشدّ الأسى والحزن؛ لقدوم بوادر الشّيب ومجيء تباشيره الّتي تنذر بالعجز والضّعف وقلّة الحيلة...

وَمَشِيْـــــبٌ آبَ نَازِحُهُ لَيْتَهُ إِذْ كَانَ مَـــــا بَانَا

ويمضي في توظيف تقنية الأنسنة حيث أنسن المشيب، فيشبّهه بإنسان نازح لسبب ما، وحان يوم مجيئه ولكنّه قدوم غير سعد؛ لأنّ الشّيب نذير الموت والفناء وتقديم العذر من الله تعالى للمرء. ويعدّ انقضاء الشّباب وزور الشّيب؛ من خيانات الدّهر للإنسان. والشّكوى من الدّهر سمة ضعف الفرد الّذي يشعر فيها بعجز المقاومة أو عن الفعل، فالشّاعر أضعف من أن يُقاوم الدّهر؛ إذ تَوهُّم القدرة على مقارعته أو التّصدّي له، فإنّه سرعان ما يعي حجمه الطّبيعيّ فيستسلم معترفًا بضعفه، وهذا الاعتراف هو الّذي يقوده بعد ذلك إلى الشّكوى؛ إذ الشّكوى قرينة الضّعف والعجز(خليل، 2010م، ص203-204).

وجمال الشّباب من وجهة نظره الشّاعر قرين النّجدة، والشّجاعة والإقدام والحزم، والشّدّة ونقيض الكسل والنّكوص عن الحق، وعدم الإسراع إلى حيث يكون الصّريخ. يقول من[مجزوء الكامل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص48):

لَيـــسَ الفَتى بِجِمـــالِهِ لَكِن بِنَجـــدَتِهِ وَحَزمِه

كَسُـــلَ الفَتى في شَأنِهِ سَبَبٌ لِفـــاقَتِهِ وَعُدمِه

وهذا يُعدّ تطوّرًا في مفهوم قيمة الفتوّة، وشكلًا من أشكال التّحول في حياة المسلم، وذلك بفضل الإسلام وفكره وعقيدته، ومفاهيمه الجديدة الّتي لم يألفها الإنسان، فقد طوّر الإسلام الكثير من مفاهيم القيم، كما حافظ على بعضها الّتي تتناغم والدّين الجديد(الدّسوقيّ،(د.ت)، ص133-140).

ويقرن بين تذكّر المحبوبة وتذكّر عهد الشّباب والوصال وتساقي كؤوس الهوى والعشق. يقول من[البسيط](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص213):

ذَكَرتُهُم وَالنَّـــوَى بَيْنِـــــــي وَبَينَهُمُ ذِكْرَى الشَّبَابِ الَّذِي قَدْ كَانَ عَاصَانِي

بَلْ كَيْفَ أَذْكُرُ عَهْـــــدًا لَسْتُ نَاسِيَهُ هَلْ يَعْرُضُ الذِّكْرُ إِلَّا بَعْـــدَ نِسْيَـــانِ

فالمحبوبة والشّباب أمران نفيسان لا يُنسيان قطّ، فكلاهما يُبهج النّفس ويُسعد الرّوح ويرتبط بالحياة المتجدّدة، فالحُبّ حليف الرّغبة في البقاء، وصورة من صور التّمرّد على الفناء(إبراهيم،(د.ط)، ص129)؛ ولذلك لا تجد شاعرًا إلّا ويتغنّى بهما؛ لما فيهما من ذكريات عذبة وآمال عراض. وهذا يُذكّرنا بقول عبد الله بن المعتز من[الطّويل](ابن المعتزّ،(د.ت)، ص197):

أَيَا وَيْحَهُ مَـــــا ذَنبُهُ إِنْ تَذَكَّـــــرَا سَـــــوالِفَ أَيَّامٍ سَبَقـنَ وَأَخَّـــرَا

وَسَكْـــــرَةَ عَيْـشٍ فَـارِغٍ مِنْ هُمُومِهِ وَمَعْرُوفَ حَالٍ لَمْ نَخَفْ أَنْ يُنَكَّـــرَا

وَعَصْرَ شَبَـــــابٍ كَانَ مَيْعَةَ حُسْنِهِ وَظِلًّا مِـــــــنَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ مُنَشَّـــرَا

فالمحبّ ما فتئ يهجس بالحنين إلى الأيّام الخوالي؛ أيّام الشّباب والوصال، ويعكس الحديث عنها حالة من الحزن والأسى، وكذا الفرح والسّرور الّتي لا تُفارقه مهما تقدّمت به السّنّ.

وليس قوله الآتي ببعيد عن ذلك المعنى. يقول من[الطّويل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص55):

وَذَكَّرَنِيْهِ البَـــــــدْرُ وَاللَّيْـــــــلُ دُونَهُ فَبَاتَ بِحَـــدِّ الشَّـــوْقِ وَالصَّبْـرِ يَلْعَبُ

كَذِكْرَى الحِمَى وَالحَيِّ فِي مَنْعَجِ اللِّوَى وَذِكرُ الصِّبَا وَالرَّأْسُ أَخْلَـــــسُ أَشْيَـبُ

فَأَزْدَادُ فِي جُنْـحِ الظَّـــلَامِ صَبَـــــابَةً فَلَا صَعْـــــبَ إِلَّا وَهْوَ بِاللَّيْلِ أَصْعَـبُ

يُعدّ القمر مصدرًا خصبًا للشّعراء، ويقترن بانسياب العواطف وانثيال المشاعر، ويُفتّق أذهانهم بمعاني مفعمة بالحسن والجمال والطّهارة والنّقاء وعلوّ المكانة ورفعة المنزلة...، ويبقى القمر ملاذًا واسعًا يبوح فيه العاشق ما يختلج في نفسه من: شوق وحبّ وحنين(شتيّة، 2010م، ص70)./ وَذَكَّرَنِيهِ البَدرُ/ ، ومعاناة وألم وأسى وحزن. واقتران البدر باللّيل/ وَاللَّيلُ دُونَهُ/ يشي بأنّ الذّكريات باهتة؛ لقدم عهدها. وتجسيم الشّوق والصّبر؛ حيث شبّههما بالسّيف الّذي يلعب به الفارس، يجعلهما أكثر قربًا من المتلقّي من جهة، ويشي بتمنّع المحبوبة وبخلها مع حبيبها من جهة أُخرى. وأشدّ ما تكون هذه الذّكرى تأثيرًا في النّفس وإثارة للأشجان عندما ترتبط بزمان ما ومكان معيّن، ويزداد أثرها في النّفس فتجعلها نهبًا للذّكريات؛ وذلك عندما يُخيّم اللّيل بظلامه على المحبّ. وإذا كان اللّيل أكثر هدوءًا وسكونًا، فإنّه يُشكّل مصدر قلق وخوفً وألم بالنّسبة للعاشقين/ فَلا صَعبَ إلّا وَهوَ باللّيلِ أَصعَبُ.

المبحث الثّاني: صُورةُ الشّيبِ في شِعْر أَبِي هلال العَسكريّ

لا يكاد يخلو ديوان من دواوين الشِّعر العربيّ ولاسيّما الشِّعر القديم من الحديث عن الشّيب، سواء أكان مدحًا أم ذمًّا، إلّا أنّ الإغراق في وصف الشّيب كان في العصر العبّاسيّ، يقول الشّريف المرتضى(ت436هـ):"واعلم أنّ الإغراق في وصف الشّيب والإكثار في معانيه واستيفاء القول فيه، لا يكاد يوجد في الشِّعر القديم، وربّما ورد له فيه الفقرة بعد الفقرة...، وإنّما أطنب في أوصافه واستخراج دفائنه والولوج إلى شعابه؛ الشّعراء المحدثون..."(الشّريف المرتضى،2019م، ص91-92). ربّما يعود ذلك إلى أنّ الشّيب من دلائل: العجز والضّعف والوهن والكبر والاستسلام لعوارض الزّمن، ولأنّه أيضًا مناقض لمظاهر الفتوّة والقوّة الّتي كان يعتزّ بها العربيّ في مقارعة الدّهر. حتّى أنّ الشّاعر، وإن جاء على ذكر الشّيب، فلا يذكره إلّا في معرض مقارعة الحوادث

والوقائع والحروب، وليس من تقدّم السّن؛ إمعانًا في التّمرد على فكرة الموت. وتكثر الشّكوى من الشّيب في مرحلة الشّيخوخة، كما تشتدّ فيها لهجة التّذمّر، ولا عجب في ذلك، فهي رسول الموت، الّذي يكشف عن زوال الشّباب وانقضاء أيّام الدّعة والتّنعّم؛ ولذلك ترى الشّاعر يتمرّد على واقع الشّيخوخة ويرفض الاستسلام لعوارض الكبر.

وغالبًا ما يقترن الحديث عن الشّيب بالتّحسّر والبكاء على الشّباب. وتتجسّد في مرحلة المشيب حالة من القلق؛ حيث تتبدّل من القوّة إلى الضّعف والاستقرار إلى الاضطراب والتّفاؤل إلى اليأس، والإدبار عن الحياة إلى الإحساس الشّديد بالموت والفناء. فإنّ بعض ما تتميّز به مرحلة الشّيخوخة هو حالة القلق الشّديد الّتي تعتري كبير السّنّ بسبب التّغييرات الّتي تطرأ عليه(الشّمّريّ، 2014م، ص15). وفي هذه المرحلة يظلّ المرء" بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ تتنازعه آلام كثيرة، فهو بين ندم وحسرة وخوف من المجهول"(يوسف، 1988م، ص110). فالإنسان في هذه المرحلة يتغيّر" تغيّرًا عضويًّا ونفسيًّا؛ نتيجة لزيادة عمره فهو في شبابه مخلوق ناضج يُواجه مشكلات حياته بقوّة...، وهو في شيخوخته كائن ضعيف يعيش على ماضيه أكثر ممّا يعيش في حاضره، إنّه يعيش ذكرياته الّتي صنعها في طفولته وشبابه"(السّيّد، 1975م، ص348).

ولم ينظر الشّعراء إلى الشّيب نظرة سواء، فبعضهم نظر إليه على: أنّه زائر شؤم ودليل عجز وضعف ووهن، ومن ثمّ ذمّه ذمًّا شديدًا، وعدّه عيبًا، وشينًا، وخطام الموت، ونذير المنيّة، وناعي الشّباب...(الثّعالبيّ، 1983م، ص386-389). وقسم رأى فيه: حلية العقل وسمة الوقار ورداء العلم والأدب وضيف محبوب وطريق الرّشد...(الثّعالبيّ، 1983م، ص385-386). والدّافع عن ارتكاب الباطل والزّاجر عن المضيّ في الغيّ وترك التّصابي، ومن ثمّ فهو ذو أثر إيجابيّ.

وكثيرًا ما يشكو الشّعراء من الشّيب؛ لما فيه من إعراض وصدّ المرأة عنهم. يقول أبو هلال العسكريّ من[المتقارب](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص62-63):

رَحَلْنَ العَشِيَّةَ مِنْ ذِي الغَضَا وَخَلَّفنَ فِيْهِ جِمَـالًا وَطِيْبَـا

فَلَا تَعْجَبَا أَنْ يَعِبْنَ المِشِيْـبَ فَمَـا عِبْنَ فِي ذَاكَ إِلَّا مَعِيْبَا

إِذَا كَـانَ شَيْبِـي بَغِيْضًا إِلَيَّ فَكَيْفَ يَكُـونُ إِلَيْهَـا حَبِيْبَا

وَقَدْ كُنْتُ أَرْفُلُ بُرْدَ الشَّبَـابِ قَشِيْبًا وَأَرْفُـلُ وَشْيًا قَشِيْبَـا

إنّ ازدهار العواطف واشتعالها من حقّ الشّباب وحدهم، ومن ثمّ لا ينبغي لذي شيبة أن يُشبب بالمرأة أو يتغزّل بها؛ لأنّه سَيقابَل بالإنكار والإعراض والصّدّ، وعندما يذمّ الشّاعر الشّيب، فإنّه يأسى على شبابه من جهة انصراف النّساء عنه، وإنّه لم يعد عندهنّ صاحب المكانة من قبل، وهذا يُثير حزن الشّاعر وأشجانه، ويبعث في نفسه الأسى والحزن، ويتألّم عندما تهبّ عليه رياح الفناء المؤذنة بالرّحيل، وهذه الرّياح تكون قويّة وعاتية؛ لأنّها تهبّ من قبل المرأة الّتي كانت ركنًا أساسيًّا في حياته(العمريّ، 1992م، ص32).

وليس بخاف أن الشّاعر يذمّ الشّيب ويُعيبه؛ لأنّه يحول بينه وبين وصال المحبوبة والتّقرّب منها، ولا غرو في ذلك، فإنّ النّساء يدبرن عن المشيب ويُعرضن عنه؛ لأنّه افتقد معظم مظاهر الحياة والحركة والنّشاط والشّجاعة والإقدام، وإذا كان الشّيب معيب مِن قبل مَن وخطه وأشعل رأسه، فكيف لا يُعاب من قبل الغواني والحسان؟! ويستحضر الشّاعر أيّام شبابه وكيف كان يزهو ويعجب، وهو يرتدي هذه الحُلّة القشيبة والرّداء النّضير. والمفارقة بين الشّيب والشّباب تُجسّد الفارق الكبير بين: القوّة والفتوّة والضّعف والعجز والإعجاب والنّفور والفرح والسّعادة، والأسى والحزن والتّلازم بين الشّيب والشّباب، يعمّق الفارق الجليّ بين هذه العواطف وهاتيك المشاعر.

ويقول في السّياق ذاته من[الطّويل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص62-63):

تَكَلَّفَ مَـدْحَ الشَّيْبِ عِنْدِي مُعَمَّرٌ وَهَـلْ يُمْدَحَنَّ الشَّيْـبُ إِلَّا تَكَلُّفَـا

فَقُلْـتُ اِنْظُـرَنِّي أَوَّلًا مِنْهُ مُؤْلِمًا لِقَلْبِ فَتًى أَوْ آخِـرًا مِنْهُ مُتْلَفَـا

تَصَرَّمَ مِـنْ عُمْـرِي ثَلَاثُونَ حُجَّةً لَبِسْـتُ بِهَا ثَوْبَ الشَّبَـابِ مُطَرَّفَا

شَبَابٌ أَطَـــارَ الوَجْـــدَ عَنِّي غِيَابُهُ وَصَرْفُ زَمَـــانٍ لَمْ أَجِدْ عَنْهُ مَصْـرِفَا

أَقَمْتُ بِهِ صَـــــدْرَ السُّرُورِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ الشَّيْـــــبُ حَتَّى رَدَّهُ مُتَحَنِّفَـــا

فَطِرْ بِجَنَاحِ اللَّهـوِ فِي زَمَـــنِ الصِّبَـــا فَأَخلِقْ بِهِ إِنْ شِئْـــــتَ أَنْ يَتَحَيَّفَا

تَنَاوَلَ وَخْطُ الشَّيْبِ أَطْرَافَ عَارِضِي فَأَصْبَحَ لَيْلًا بِالصَّبَـــــاحِ مُشَنَّفَـــا

يُشبّه الشّاعر في البيت الأوّل الشّيب بالممدوح، الّذي فُرِض عليه مدحه على سبيل الاستعارة المكنيّة، كما يوحي الدّالّ/ مَدْحَ/ وتشي هذه الاستعارة بكره الممدوح وبغضه الّذي كان مدحه إيّاه تكلّفًا، وبلا حرارة وصدق عاطفة. وهنا يستدعي قول الأعرابيّ في صفة الشّيب: "أَكْرَهُ ضَيفٍ وأَبغضُ طَيفٍ، وأَحبُّ غَائبٍ وأَفجَعُ آيبٍ"(أبو هلال العسكري، 1933م، 2/158-159). وليس غريبًا أن يكره المرء الشّيب كرهًا شديدًا، وينفر منه كما ينفر السّليم من الأجرب، فبوادره مؤلمة تبعث على الحزن والأسى، وعندما ينتشر في رأس الفتى انتشار النّار بالهشيم يكون أكثر إيلامًا، فهو شبيه الدّاء الّذي يكون أوّله مؤلمًا وآخره متلفًا. وفي مقابل هذه اللّوحة: بخطوطها وظلالها وألوانها الّتي تبعث على الحزن والأسى، والّتي تبدّت عليها صورة الشّيب، تجيء صورة الشّباب الزّاهية المفرحة...؛ حيث تجلّي المفارقة الصّارخة بين هاتين اللّوحتين المتضادّتين. فالشّباب الّذي أمضى منه ثلاثين حجة، يحاكي الثّوب المطرّف الّذي حيك من الخزّ، في طرفيه علمان(إبراهيم، 2003م، ص304). وكما كان يتّقي بهذا الشّباب شبح الوجد وتصاريف الزّمان القاسية، ولكن ما لبث الشّيب أن ذهب بجدّة الشّباب ونضارته. وإذا كان الأمر كذلك، فما على المرء إلّا أن يغتنم نضارة شبابة في اللّهو المباح، وأن يستغلّ صباه فيما يحلّ له/فَطِرْ بِجَناحِ اللّهوِ في زَمنِ الصِّبا/؛ لأنّ الشّباب مطيّة الجهل والطّيش والإغراء والغرور...

لقد نهضت هاتان اللّوحتان على تقنية الاستعارة:" تَكَلَّفَ مَدحَ الشَيبِ/وَهَل يُمدَحَنَّ الشَيبُ/ شَبابٌ أَطارَ الوَجدَ/.فَطِر بِجَناحِ اللَهوِ.../ الّتي تنقل النّصّ من حال الجمود اللّفظي المحدّد إلى حال السّيرورة والحركة، فضلًا عن كونها علاقة لغويّة تكوّن صورًا تقوم على انتقال الألفاظ بين الدّلالات الثّابتة للكلمات المختلفة، ومن هنا تقوم

حيويّة الاستعارة وعدم ثباتها(عبد العزيز، 1984م، ص234). واللّغة الاستعاريّة أكثر قدرة على الإفصاح عن مشاعر المتكّلم في أي لحظة من لحظات الحزن والفرح والهدوء والغضب، فهي متنفّس للعواطف والمشاعر الانفعاليّة الحادّة(أبو العدوس، 1997م، ص10).

والشّيب علامة من علامات المرض وآية من آيات السّقام الّذي لا يقدر على شفائه طبيب، أو ينفع معه دواء. يقول من[مجزوء الرّمل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص52):

قَدْ تَخَطّــاكَ شَبَـابُ وَتَغَشّـــاكَ مَشِيْـبُ

فَأَتَى مَا لَيْسَ يَمْضِي وَمَضَى مَا لَا يَؤُوبُ

فَتَـأَهَّبْ لِسِقَـــامٍ لَيْــسَ يَشفِيْهِ طَبِيْبُ

لَا تَوَهَّمْهُ بَعِيْـــــدًا إِنَّمَـــا الآتِي قَرِيْبُ

قَد تَخَطّاكَ شَبابُ/ استعارة مكنيّة، أنسن فيها الشّباب المفعم بالحياة والنّشاط/ وَمَضىَ مَا لَا يَؤوبُ/، فشبّهه بإنسان يتجاوز شيئًا ما، وتشي هذه الاستعارة بالحزن والأسى على الشّباب الّذي مضى وانقضى بكلّ ما فيه من مُتع ولهو وملذّات.../ وَتَغَشّاكَ مَشيبُ/ استعارة مكنيّة أيضًا؛ حيث جسّم فيها الشّيب بما يُجسّده من: عجز ووهن واستسلام لنوائب الدّهر، فشبّهه بالغطاء الّذي يُغطّي شيئًا فيحجبه عن الرّؤية، وهكذا الشّيب/ فَأَتَى مَا لَيسَ يَمضِي/، فإنّه لا يدع مظهرًا من مظاهر الشّباب إلّا طمسه وأبلاه... ونلمح في قوله::"لا تَوَهَّمهُ بَعيداً" استدعاءً- مع الفارق بين السّياقين- قوله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) ﴾[المعارج:6،7]. وهذا يعني قريب جدًا وأنّ مرحلة الشّباب سرعان ما تنقضي. وكذا الحال في قول:" إِنَّما الآتي قَريبُ" استدعاء لقول أبي القاسم محمّد بن هانئ الأندلسيّ(ت362هـ) من[المتقارب](ابن هانئ الأندلسيّ، 2008م، ص30):

صَهِ! كُلُّ آتٍ قَرِيْبُ المدَى وَكُلُّ حَيَـــــاةٍ إِلَى مُنْتَهَى

وهذا ينمّ عن ثقافة واسعة ودقّة كبيرة في توظيف النّصوص السّابقة، فضلاً عن دورها الفاعل في إيقاظ ذاكرة المتلقيّ وتنشيطها من أجل القبض على النّصوص الغائبة، وتجلية دورها في النّصّ الحاضر؛ كتقويّة الحجج الحاضرة، واقناع المتلقّي بوجهة النّظر الجديدة.

وعندما يشتعل الرّأس شيبًا؛ نتيجة الكبر، والهرم الّذي يُفضي إلى اعوجاج القوام وتجعّد الوجه، وكذا تشنّجه، في حين أنّ الشّباب الّذي يتميّز بسواد الشّعر كأنّه سواد اللّيل؛ الشّباب الّذي يُصبي الحسان، وتفوح منه الرّائحة الزّكيّة النّافذة من النّشاط والحيويّة. يقول أبو الهلال العسكريّ في هذا السّياق من[الطّويل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص82):

قَوَامٌ كَمَـــا شَاءَ المَشِيْبُ مُعَوَّجُ وَوَجْهٌ كَمَـــا لَا تَشْتَهِيْهِ مُشَنَّجُ

وَفَرْعٌ جَلَاهُ الشَّيْـــبُ حَتَّى كَأَنَّمَا تَغَشَّاهُ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ أَبْلَجُ

وَعَهْدِي بِهِ بِالأَمْـسِ جَوْنًا كَأَنَّمَا تَجَلَّلَهُ عُرْفٌ مِـــنَ اللَّيْـــلِ أَبْلَجُ

لَيَالِيَ جَاءَتكَ اللَّيَـــــالِي عَرَائِسًا تَرُوقُ وَتَصْبِي أَوْ تَضُـــوعُ وَتَأْرُجُ

حِسَانُ الوُجُـــوهِ كَالرِّيَاضِ أَنِيْقَةً تَخِيْطُ لَهَا كَفُّ الغَمَـــامِ وَتَنْسُجُ

رِقَـــــاقُ جَلَابِيْبِ النَّسِيْمِ أَرِيْجَةٌ لَهَا نَكْهَةٌ كَالْمِسْـــكِ إِبَّانَ يُمْزَجُ

يُبيّن الشّاعر في البيت الأوّل أثر الشّيب/ الكبر على الإنسان: اعوجاج في القوام/ الظّهر المتقوس وانقباض الوجه وكثرة التّجاعيد فيه، وقد قدّم هذا المعنى للمتلقّي من خلال أنسنة الشّيب الّذي يأمر، فيطاع، وينهى فَيُذعن له. وكذلك عَبْر تشبيه الوجه بالطّعام أو الفاكهة الّتي ينفر منها الإنسان لفسادها. وكذا الحال عندما شبّه الإنسان الّذي تناثر الشّيب في رأسه بالغصن، الّذي جلّلته الأزهار البيضاء. في حين كان هذا الإنسان فيما مضى من عهد الشّباب؛ أسود الشّعر، كأنّه اللّيل الحالك؛ يُسبي الغواني ويسلب أفئدة الغانيات، كما تتضوّع منه الرّائحة الزّكيّة المنعشة، علاوة على أنّه يُحاكي الرّياض الأنيقة الجميلة؛ بهجة ونضرة وحسنًا وتورّدًا، غبّ سقيا السّحاب لها.

لقد قابل الشّاعر بين الشّباب والشّيب، وذلك من خلال رسمه لوحتين متناقضتين: بخيوطها وظلالها وألوانها: شيب؛ يُجسّد قوام معوّج، ووجه مُشنّج، وشَعر أبيض. وشباب؛ يتمثّل في: الشَّعر الأسود كاللّيل الفاحم واللّيالي المترعة بالفرح والسّعادة والمرح واللّهو...، والمظهر الحسن الجميل والرّائحة العبقة والثّياب القشيبة... وقد نهضت هاتان اللّوحتان على تقنية الاستعارة/ شاءَ المِشيبُ؛ فالمشيب: إنسان قويّ يفعل ما يُريد/ وَفَرِغٌ جَلاهُ الشَيبُ؛ فالشّيب: إنسان يُزيل الصّدأ عن شيء ما / تَخيطُ لَها كَفُّ الغَمامِ وَتَنسُجُ؛ والغمام إنسان: يُخيط رداءً جميلًا لشخص عزيز عليه/ وهذه الاستعارات تبعث الحركة والحياة في الجمادات والمعنويّات. وأيضًا التّشبيه/حِسانُ الوُجوهِ كَالرِياضِ أَنيقَةً/لَها نَكهَةً كَالمِسكِ إِبّانَ يُمزَجُ؛ حيث الوجوه الّتي تُحاكي الرّياض اليانعة جمالًا وحسنًا. والشّبيه أيضًا بالمسك، الّذي يُمزج كذلك برائحة زكيّة/.

ويحاول الشّاعر أن يخفي ما ألمّ به من الشّيب، وذلك من خلال القصّ والحلاقة، ولكن هيهات له ذلك، فقد غزا الشّيب جلّ رأسه ومن ثمّ لم يجد له حلًّا، فضلًا عمّا أفضى به إلى الوهن والضّعف، ولكنّه قد تعزىّ؛ أن كلّ ابن آدم صائر إلى ما صار إليه. يقول في هذا السّياق من[الوافر](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص183):

جَرَيْتَ لِعَـــارِضٍ غَيْثِ اللَّيَالِي تَحَـــالَكَ لَونُهُ فَابْيَـــضَّ جُلُّهْ

وَصِرْتَ تَقُصُّ مَـــا يَبْيَضُّ مِنْهُ أَتَخْلِقُهُ إِذَا مَـــا ابْيَـــضَّ كُلُّهْ

تَعَزَّ عَـــنِ الشَّبِيْبَةِ وَالِهُ عَنْهَـــا فَإِنَّ اللَّيـــلَ لَيْسَ يَدُومُ ظِلُّهْ

وَخَلِّ الشَّيْبَ يَضْحَـــكُ نَاجِذَاهُ فَإِنَّ الصُّبْحَ لَا يَخْفَـــى مَطَلُّهْ

وَإِنْ حُلَّـــتْ عُـــرَا اللَذَّاتِ فِيْهِ فَلَسْـــتَ بِعَاقِدٍ مَا جَذَّ حَبْلُهْ

والمقصود بالعارض الشّيب الّذي ينتشر في رأس المرء وصدغيه...، وغيث اللّيالي: كناية عن مرور الزّمن المفضي إلى الهرم والشّيخوخة، والمعنى أنّ الشّيب أسرع إليه؛ لكبر أو غيره؛ حتّى غير سواده إلى بياض، وعندئذٍ لم يستطع إخفاءه بأيّ طريقة من الطّرق. كما كنّى بالليل عن الشّباب الّذي لا يدوم ظلّه كما لا تدوم ظلمة اللّيل، فكلاهما

إلى زوال وانتهاء. كما كنّى أيضًا بالصّبح الّذي يُضرب به المثل بالوضوح والجلاء عن الشّباب. فإذا ذهب الشّباب وولّى ثمّ أدرك المرءَ الشّيب، انقطعت سبل اللّذّات وإن توفّرت، فلا فائدة فيها. وليس بخاف أنّ التّحسّر على الشّباب ماثل في الأبيات بكلّ وضوح، وكذلك الضّجر والنّفور الشّديد من الشّيب.

فإذا حلّ لا يُمكن صرفه، بل يخلفه حتمًا الموت والفناء، وبطبيعة الحال لا يتمنّى أن يدوم وإن بدا ذلك من ظاهر القول، فهذا من المحال. يقول من[مجزوء الرّجز](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص160):

يَـــــوَدُّ أَنَّ شَيْبَهُ إِذْ جَاءَ لَا يَنْصَرِفُ

يَخْلُفُ رَيْعَانَ الصِّبَا وَالمَـوْتُ مِنْهُ خَلِفُ

فظاهر القول أنّ الشّاعر يتمنّى ألّا ينصرف الشّيب عنه ويظلّ ملازمًا له على الدّوام وإن كان لا يخلفه إلّا الموت المحقّق، ولكنّ المعنى العميق أنّ الشّاعر لا يتمنّى أن يشيب ولا يأتيه الشّيب أبدًا، ولكنّ هذا ضرب من المحال، فالشّيخوخة والشّيب لا مفرّ منهما.

ولا عجب أن يذمّ المرء الشّيب؛ لأنّه دليل الوهن والضّعف وقلّة الحيلة وفقدان القدرة على النّشاط، والحياة، كما أنّه آية من آيات المرض والسّقام وقرب ساعة الرّحيل، ومن يضحك الشّيب في وجهه فقد آذن بالفراق الّذي لا رجعة معه. ولم يكن أبو هلال العسكريّ بدعًا من الشّعراء، فقد ذم الشّيب. يقول من[الرّجز](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص249):

وَالشَّيْبُ زَوْرٌ يُجْتَـــوَى وَقُرْبُهُ لَا يُرْتَضَى وَفَقْدُهُ لَا يُشْتَهَى

قَدْ يَشْتَهِـي كُلُّ اِمْـرِئٍ بُلُوغَهُ وَقَلَّ مَـــنْ يُبْلِغُهُ إِلَّا شَكَـــا

كَأَنَّمَا الشَّبَـــابَ كَانَ فُـرْقَةً لَهُ مِنَ الأَنْفُـــسِ حُبٌّ وَقِ

يُشبّه الشّيب بالزّائر المكروه الّذي لا يُرغب بقاؤه ولا تُرتضى صحبته وتكثر الشّكوى منه؛ لأنّه يرمز إلى الفناء والموت. أمّا الشّباب، فعلى العكس من ذلك، فهو يشبه الضّيف العزيز الّذي نُحبّه حينما يزورنا ونبغضه عندما يُغادرنا.

ويرى الشّاعر أحيانًا أن الشّيب ممدوح؛ لأنّه يُجسّد مرحلة الحكمة وسداد الرّأي، وكذلك عنوان الرّزانة والوقار والتّجربة الحياتيّة العميقة والدّاعي إلى الحقّ والرّشاد والهدى. يقول من[الطّويل](أبو هلال العسكريّ، 1979م، ص249):

أَرَانِيَ مِنْهـــاجَ الهُـدَى فَسَلَكْتُهُ وَلَمْ تَتَشَعَّبْ فِي الضَّـلَالِ مَذَاهِبِي

وَخَبَّرَ أَنَّ الجَهْـــلَ لَيْـسَ بِآيِبٍ إِلَيَّ وَأَنَّ الحِلْمَ لَيْـــسَ بِعَـــازِبِ

لقد دلّه الشّيب على الهدى وأرشده إلى طريق الاستقامة وهذا ما تشي به الاستعارة المكنيّة؛ حيث استعار للشّيب فعل الإرشاد/ أَرَانِيَ الّذي يُعد من خصائص الإنسان، ومن ثمّ لم تتشعّب به الطّرق؛ أي لم تأخذه إلى التّيه والغواية والضّلال... وهذا يعني أنّه لن يعود إلى الجهل الّذي تركه وأصرّ على النّأي عنه، وبذلك لم يفارقه الحِلْم. وقد أنسن الشّاعر لفظتي:" الجَهْلَ، الحِلْمَ"؛ ليعمّق المفارقة بين الجهل الّذي يقود إلى غير الحقّ، والحِلْم قرين الهدى والتّقى والخير.

الخاتمة:

خَلُصت الدّراسة إلى مجموعة من النّتائج، من أبرزها ما يلي:

1- يحنّ الشّاعر إلى فترة شبابه ويكثر الحديث عنها ويدعو إلى استغلالها واغتنامها، ومن هنا تجده في مرحلة الشّيخوخة يذكر الشّباب ويتحسّر عليه ويبكيه أحرّ البكاء، فليس ثمّة حنين كحنين الإنسان لعهد الشّباب؛ بلهوه وغزله وقوّته ومغامراته...، وليس ما يشغله في شيخوخته؛ تسرية للنّفس وتسلية لها إلّا ذكر فترة الشّباب.

2- جمال الشّباب قرين النّجدة والشّجاعة والإقدام والحزم والشّدّة، ونقيض الكسل والنّكوص عن الحق وعدم الإسراع إلى حيث يكون الصّريخ.

3- ويقرن بين تذكّر المحبوبة، وتذكّر عهد الشّباب والوصال وتساقي كؤوس الهوى والعشق. فالمحبوبة والشّباب أمران نفيسان لا يُنسيان قطّ؛ ولذلك تجده يتغنّى بهما؛ لما فيهما من ذكريات عذبة وآمال عراض.

4- يشكو أبو هلال العسكريّ من الشّيب؛ لما فيه من إعراض وصدّ المرأة عنه، ومن ثمّ لا ينبغي لذي شيبة أن يُشبّب بالمرأة أو يتغزّل بها؛ لأنّه سَيقابَل بالإنكار والإعراض والصّدّ.

5- يُقابل بين الشّباب والشّيب، وذلك من خلال رسم اللّوحات المتناقضة: بخيوطها وظلالها وألوانها: شيب يُجسّد قوامًا معوّجًا ووجهًا مُتشنّجًا وشَعْرًا أبيض. وشباب أسود الشَّعر كاللّيل الفاحم، واللّيالي المترعة بالفرح والسّعادة والمرح واللّهو...، والمظهر الحسن الجميل والرّائحة العبقة والثّياب القشيبة... ؛ ولذلك تراه يحاول أن يخفي ما ألمّ به من الشّيب، من خلال القصّ والحلاقة ولكنْ هيهات له ذلك.

6- يذمّ الشّيب؛ لأنّه دليل الوهن والضّعف وقلّة الحيلة وفقدان القدرة على النّشاط والحياة، فضلًا على أنّه آية من آيات المرض والسّقام وقرب ساعة الرّحيل. ومن يضحك الشّيب في وجهه فقد آذن بالفراق الّذي لا رجعة معه.

7- يمدح الشّيب؛ لأنّه يُجسّد مرحلة الحكمة وسداد الرّأي، ويُمثّل كذلك عنوان الرّزانة والوقار والتّجربة الحياتيّة العميقة، والدّاعي إلى الحقّ والرّشاد والهدى.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، رجب عبد الجواد،(2002م)، *المعجم العربيّ لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنّصوص الموثّقة من العصر الجاهليّ حتّى العصر الحديث*، ط1، تقديم: محمود فهمي حجازي، مراجعة: عبد الهادي التّازي، القاهرة، دار الآفاق العربيّة.
- إبراهيم، زكريّا،(د.ت)، *مشكلة الحياة*، (د.ط)، القاهرة، مكتبة مصر.
- الثّعالبيّ، أبو منصور عبد الملك بن محمّد،(1983م)، *التّمثيل والمحاضرة*، تحقيق: عبد الفتّاح الحلو،(د.ط)، بيروت، الدّار العربيّة للكتاب.
- الحمويّ، ياقوت بن عبد الله،(1993م)، *معجم الأدباء*، تحقيق: إحسان عبّاس، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ.
- ابن خلّكان، أحمد بن محمّد بن أبي بكر،(1977م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان*، تحقيق: إحسان عبّاس،(د.ط)، بيروت، دار صادر.
- خليل، لؤي عليّ،(2010م)، *الدّهر في الشّعر الأندلسيّ- دراسة في حركة المعنى-*، ط1، دار الكتب الوطنيّة، أبو ظبي، دار الكتب الوطنيّة.
- الدّسوقيّ، عمر،(د.ت)، *الفتوّة عند العرب أو أحاديث الفروسيّة والمثل العليا*،(د.ط)، القاهرة، مكتبة نهضة مصر.
- ماي، رولو،(1993م)، *البحث عن الذّات*، ط1، تعريب: عبد عليّ الجسمانيّ، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر.
- الزركليّ، خير الدّين،(1986م)، *الأعلام*، ط7، بيروت، دار العلم للملايين.
- زهران، حامد عبد السّلام،(1980م)، *التّوجيه والإرشاد*،، ط2، بيروت، عالم الكتب.

- السّيّد، فؤاد البهي،(1975م)، *الأسس النّفسيّة للنّموّ من الطّفولة إلى الشّيخوخة*، ط1، القاهرة، دار الفكر العربيّ، القاهرة.
- شتية، فؤاد يوسف إسماعيل، *القمر في الشّعر الجاهليّ*، (رسالة ماجستير غير منشورة)، نابلس، قسم اللّغة العربيّة، كلّيّة الآداب، جامعة النّجاح الوطنيّة، 2010م.
- الشّريف المرتضى، عليّ بن الحسين الموسويّ،(2019م)، *الشّهاب في الشّيب والشّباب*، تحقيق: محمّد حسين الواعظ النّجفيّ، ط1، قُمّ، مركز المؤتمرات العلميّة والبحوث الحرّة التّابع لمؤسّسة دار الحديث.
- الشّمريّ، ثائر سمير حسن،(2014م)، *الشّيب في الشّعر العبّاسيّ حتّى نهاية القرن الرّابع الهجريّ*، ط1، عمّان، دار صفاء للنّشر والتّوزيع.
- ابن عبد ربّه الأندلسيّ، أحمد بن محمّد،(1983م)، *العقد الفريد*، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- عبد العزيز، ألفت محمّد كمال،(1984م)، *نظريّة الشّعر عند الفلاسفة المسلمين من الكنديّ حتّى ابن رشد*،(د.ط)، القاهرة، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة.
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم،(1965م)، *أشعاره وأخباره*، تحقيق: شكري فيصل،(د.ط)، دمشق، مطبعة جامعة دمشق.
- أبو العدوس، يوسف،(1997م)، *الاستعارة في النّقد الأدبيّ الحديث الأبعاد المعرفيّة والجماليّة*، ط1، عمّان، الأهليّة للنّشر والتّوزيع، عمّان.
- العمريّ، زينب عبد العزيز،(1992م)،"*الشّيب في الشّعر العربيّ القديم*"، مجلّة الآداب، جامعة بنها، المجلّد2، العدد1، ص1- 67.
- ابن المعتزّ، عبد الله،(د.ت)، *ديوانه*،(د.ط)، بيروت، دار صادر.

- ابن منظور، محمّد بن مكرّم،(د.ت)، *لسان العرب*،(د.ط)، بيروت، دار صادر.
- ابن هانئ الأندلسيّ، أبو القاسم محمّد،(2008م)، *ديوانه*، تحقيق: محمّد اليعلاوي، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ.
- أبو هلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله،(1979م)، *ديوانه*، جمع وتحقيق: جُورج قنازع،(د.ط)، دمشق، مجمع اللّغة العربيّة.
- أبوهلال العسكريّ، الحسن بن عبد الله، (1933م)، *ديوان المعاني*، القاهرة، مكتبة القدسيّ.
- يوسف، حسن عبد الجليل، *الإنسان والزّمان في الشّعر الجاهليّ*(1988م)، ط1، القاهرة ، مكتبة النّهضة المصريّة.

– Ibrāhīm, Rajab ‘Abd al-Jawwād, (2002M), al-Mu‘jam al‘rbī li-asmā’ al-Malābis fī ḍaw’ al-ma‘ājim wālnnṣwṣ almwththqh min al-‘aṣr aljāhlī ḥttá al-‘aṣr al-ḥadīth, Ṭ1, taqdīm : Maḥmūd Fahmī Ḥijāzī, murāja‘at : ‘Abd al-Hādī alttāzy, al-Qāhirah, Dār al-Āfāq al-‘Arabīyah.
– alththa‘ālbī, Abū Manṣūr ‘Abd al-Malik ibn Muḥammad, (1983m), alttmthyl wālmḥāḍrh, taḥqīq : ‘Abd alfttāḥ al-Ḥulw, (D. Ṭ), Bayrūt, alddār al-‘Arabīyah lil-Kitāb.
– alḥmwī, Yāqūt ibn ‘Abd Allāh, (1993M), Mu‘jam al-Udabā’, taḥqīq : Iḥsān ‘Abbās, Ṭ1, Bayrūt, Dār al-Gharb al’slāmī.
– Ibn khllkān, Aḥmad ibn Muḥammad ibn Abī Bakr, (1977M), wafayāt al-a‘yān w’nbā’ abnā’ alzzmān, taḥqīq : Iḥsān ‘Abbās, (D. Ṭ), Bayrūt, Dār Ṣādir.
– Khalīl, Lu’ayy ‘lī, (2010m), alddhr fī alshshi‘r al’ndlsyy-dirāsah fī Ḥarakat alm‘ná-, Ṭ1, Dār al-Kutub alwṭnyyh, Abū Ẓaby, Dār al-Kutub alwṭnyyh.
– alddswqī, ‘Umar, (D. t), alftwwh ‘inda al-‘Arab aw aḥādīth alfrwsyyh wa-al-mathal al-‘Ulyā, (D. Ṭ), al-Qāhirah, Maktabat Nahḍat Miṣr.
– Māy, rwlw, (1993M), al-Baḥth ‘an aldhdhāt, Ṭ1, ta‘rīb : ‘Abd ‘lī aljsmānī, Bayrūt, alm’sssh al-‘Arabīyah llddrāsāt wālnnshr.
– alzrklī, Khayr alddyn, (1986m), al-A‘lām, ṭ7, Bayrūt, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn.
– Zahrān, Ḥāmid ‘Abd alsslām, (1980m), alttwjyh wa-al-Irshād,, ṭ2, Bayrūt, ‘Ālam al-Kutub.
– alssyyd, Fu’ād al-Bahī, (1975m), al-Usus alnnfsyyh llnnmww min alṭṭfwlh i

l
á
- Zahrān, Ḥāmid ʻAbd alsslām, (1980m), alttwjyh wa-al-Irshād,, ṭ2, Bayrūt, a-Ālam al-Kutub.
- l alssyyd, Fu’ād al-Bahī, (1975m), al-Usus alnnfsyyh llnnmww min alṭṭfwlh s ilá alshshykhwkhh, Ṭ1, al-Qāhirah, Dār al-Fikr alʻrbī, al-Qāhirah.
- h shtyh, Fu’ād Yūsuf Ismāʻīl, al-qamar fī alshshiʻr aljāhlī, (Risālat mājistīr s ghayr manshūrah), Nābulus, Qism alllghh al-ʻArabīyah, kllyyh al-Ādāb, n Jāmiʻat alnnjāḥ alwṭnyyh, 2010m.
- y alshshryf al-Murtaḍá, ʻlī ibn al-Ḥusayn almwswī, (2019m), alshshihāb fī k alshshyb wālshshbāb, taḥqīq : Muḥammad Ḥusayn al-Wāʻiẓ alnnjfī, Ṭ1, h qumm, Markaz al-mu’tamarāt alʻlmyyh wa-al-Buḥūth alḥrrh alttābʻ lm’sssh w Dār al-ḥadīth.
- k alshshmrī, Thā’ir Samīr Ḥasan, (2014m), alshshyb fī alshshiʻr alʻbbāsī ḥttá n nihāyat al-qarn alrrābʻ alhjrī, Ṭ1, ʻAmmān, Dār Ṣafā’ llnnshr wālttwzyʻ. h
- Ibn ʻAbd rbbh al’ndlsī, Aḥmad ibn Muḥammad, (1983m), al-ʻIqd al-farīd, , taḥqīq : Mufīd Muḥammad Qumayḥah, Ṭ1, Bayrūt, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah.
- T1, al-Qāhirah, Dār al-Fikr alʻrbī, al-Qāhirah. - alzrklī, Khayr alddyn, ʻAbd al-ʻAzīz, Ulfat Muḥammad Kamāl, (1984m), nzryyh alshshiʻr ʻinda al- (1986m), al-Aʻlām, ṭ7, Bayrūt, Dār al-ʻIlm lil-Malāyīn. falāsifah al-Muslimīn min alkndī ḥttá Ibn Rushd, (D. Ṭ), al-Qāhirah, al-Hay’ah alʻāmmh lil-Kitāb, al-Qāhirah.
- Abū al-ʻAtāhiyah, Ismāʻīl ibn al-Qāsim, (1965m), ashʻāruh wa-akhbāruh, taḥqīq : Shukrī Fayṣal, (D. Ṭ), Dimashq, Maṭbaʻat Jāmiʻat Dimashq.
- Abū al-ʻAdūs, Yūsuf, (1997m), al-Istiʻārah fī alnnqd al’dbī al-ḥadīth al-abʻād almʻrfyyh wāljmālyyh, Ṭ1, ʻAmmān, al’hlyyh llnnshr wālttwzyʻ, ʻAmmān.
- alʻmrī, Zaynab ʻAbd al-ʻAzīz, (1992m), "alshshyb fī alshshiʻr alʻrbī al-qadīm", mjllh al-Ādāb, Jāmiʻat Banhā, almjlld2, alʻdd1, ṣ1-67.
- Ibn almʻtzz, ʻAbd Allāh, (D. t), dīwānih, (D. Ṭ), Bayrūt, Dār Ṣādir.
- Ibn manẓūr, Muḥammad ibn mkrrm, (D. t), Lisān al-ʻArab, (D. Ṭ), Bayrūt, Dār Ṣādir.
- Ibn Hāni’ al’ndlsī, Abū al-Qāsim Muḥammad, (2008M), dīwānih, taḥqīq : Muḥammad al-Yaʻlāwī, ṭ2, Bayrūt, Dār al-Gharb al’slāmī.
- Ibn almʻtzz, ʻAbd Allāh, (D. t), dīwānih, (D. Ṭ), Bayrūt, Dār Ṣādir.
- Ibn manẓūr, Muḥammad ibn mkrrm, (D. t), Lisān al-ʻArab, (D. Ṭ), Bayrūt, Dār Ṣādir.
- Ibn Hāni’ al’ndlsī, Abū al-Qāsim Muḥammad, (2008M), dīwānih, taḥqīq : Muḥammad al-Yaʻlāwī, ṭ2, Bayrūt, Dār al-Gharb al’slāmī.
- Abū Hilāl alʻskrī, al-Ḥasan ibn ʻAbd Allāh, (1979m), dīwānih, jamʻ wa-taḥqīq : jūrj Qanāziʻ, (D. Ṭ), Dimashq, Majmaʻ alllghh al-ʻArabīyah.

- abwhlāl al‘skrī, al-Ḥasan ibn ‘Abd Allāh, (1933m), Dīwān al-ma‘ānī, al-Qāhirah, Maktabat alqdsī.
- Yūsuf, Ḥasan ‘Abd al-Jalīl, al-insān wālzzmān fī alshshi‘r aljāhlī (1988m), Ṭ1, al-Qāhirah, Maktabat alnnhḍh almṣryyh.